

"التمثلات الذهنية للأنساق العاطفية في شعر" عياش يحيياوي"

The semiotics of the passions and the cognitive discourse in AYYASH Yahiaoui 's poetry

د. أسماء حمداوي *

جامعة يحيى فارس المدية/الجزائر

Asmahamdaoui10@gmail.com

المعلومات المقال	الملخص:
تاريخ الارسال: 2021/05/16 تاريخ القبول: 2021/06/23	يستدعي الحديث في الخطاب العاطفي في شعر "عياش يحيياوي" من المنظور المعرفي مجموعة من المحددات التقنية التي تسمح بالكشف عن الملمح الذهني في الاشتغال الهوي للخطاب، بوصفه نمطا إثنينيا ينبي على أواصر العلاقة بين ثنائيي الهوى والمتخيل الشعري الذي يسهم في تحقيق الواقعة النفسانية. من هذا المنظور تندرج هذه المقاربة ضمن أحياز القراءة السيميائية في شقها الجسداني المرتبط تحديدا بسيمياء الأهواء والعرفنة.
الكلمات المفتاحية: ✓ سيمياء الأهواء. ✓ العرفنة. ✓ المتخيل.	
Article info	Abstract :
Received/...../2021 Accepted/...../2021	<p><i>This research study aims to shed light on the passions in the poetry discourse of the Algerian poet 'AYYASH YAHYAOU' in its relationships with the cognitive and psychological approaches.</i></p>
Keywords: ✓ The semiotics of the Passions. ✓ Cognitive discourse ✓ Psychological approaches	

. مقدمة:

تعتبر السيميائية من أهم المناهج النقدية التي تمخّضت عن الفكر الفلسفي والدّرس النقدي المعاصر، فقد شكّلت عبر مسارها الممتد من أواخر الخمسينيات من القرن العشرين حتى بدايات القرن الواحد والعشرين سلسلة من التطوّرات من حيث المبادئ والإجراءات، فمن سيمياء الفعل/ الحدث ومتعلقاتها الكلاسيكية إلى السيميائيات الجديدة. تعمل السيميائيات الجديدة من أجل استدعاء الإنساني في الفهم النقدي، فتتضايق مع مفهوم الجسد، وتتداخل، لصناعة كون ميتاسردي جديد، يمتح أدواته الإجرائية من خصوصية الذات بدءا بالجانب الشعوري الهوي الذي مهّد له "غريماس" من خلال كتابه "في المعنى"، وأسّس له مع "جاك فونتاني" في كتابهما: "سيميائيات الأهواء"، وتساوقا مع الجانب العرفي الذي يجعلنا في علاقة مباشرة مع مباحث التداولية من جهة ومع الدّرس النفساني الجشتلطي والعصبي والإدراكي من جهة أخرى، ووصولاً إلى سيمياء المحسوس والبصمة متمثلة في كتابات "فونتاني".

تنحوبنا هذه الهرميّة المتداخلة، المتجاوزة مع مختلف العلوم الإستيمولوجية إلى الاعتراف بمشروعية العودة إلى الإنسان ومن ثمّ العودة إلى السياق، فتقرأ النّص الأدبي بوصفه نسقا متحرّزا من قيود الدّاخل والفكرة البنيوية المحايثة. تعتمد السيميائيات في ثوبها الجديد إذن وبوصفها مبحثا من مباحث البلاغة الجديدة والمنجز النقدي ما بعد الحدائي على ضرورة العودة إلى الأصوليات المعرفية، وكذلك التحوّل من حيّز النّص المغلق إلى الانفتاح على مختلف مقولات السياق ولكن بطريقة مخالفة لما كانت عليه الدّراسات السياقية قبل البنيوية، فبدلا من إسقاط نتائج العلوم المتجاوزة مع الأدب على نصوصه إسقاطا إقحاميا، يدمجها في النّص الأدبي من خلال عمليتي النّقد -يمنحها مشروعية أن تصبح آلية من آلياته- والتأويل.

نخضع فيما يلي مجموعة من النماذج الشعرية للشاعر الجزائري "عياش يحيايوي" إلى هذا المعيار الجسدي الجديد في الملفوظ السيميائي وخاصة ما تعلق منه بالشقّ الهوي، محاولين دراسته عن طريق الكشف عن الموجهات الذهنية والنفسانية للفعل العاطفي في الخطاب، نظرا لكون الأساسي « في دراسة الهوى ليس التّعرف على العلامات الدّالة على الأهواء، بل الاهتمام "بآثارها المعنوية كما تتحقق في الخطاب.» (غريماس وجاك فونتاني، 1991، ص 11) وذلك وفق مايلي:

2. الأنساق العاطفية في شعر "عياش يحيايوي".

يلاحظ قارئ دواوين "عياش يحيايوي" تصارع نمطين من الحالات العاطفية، يتعلق النمط الأول بالخطاب الصريح الذي يشي في معظم حالاته ومتعلقاته الدلالية، بعاطفة الحزن وما يحيط به من قاموس مكثف لمفردات الموت والألم، ويرتبط النمط الثاني باللعبة المفارقة التي تسند لكل فعل رغبة خطابا ضديدا متبينة ضرورات الشكل الشعري الذي يسعى إلى تغليف الهوى المطمور، انتصارا للصمت العاطفي تارة، وانفلاتا منه تارة أخرى.

1.2. الأهواء المعلنة: الحزن والكتابة ورغبة التحرر.

تنضح القصيدة الشعرية لدى "عياش يحيايوي" بمعجم حزين يعبر عن وجع الشاعر ومدى استعداده للموت من خلال استحضاره مجموعة من المتخيلات التي تعبر عن مأساته وتتماهى مع وجعه، فيتحدان وببوح القصيد الذي يعلن بكاء عود الثقب، يبكي الشاعر نفسه، يقول:

« عود ثقب متشرد

يبكي لأنه مقدوح

ويبكي لأنه مجروح

ويبكي لأن البكاء لا يحتاج إلى واسطة

أو ملء استمارات صعبة الفهم

أو التذلل أمام ماكياج السكرتيرة

البكاء سماء

يلمسها دعاء المظلوم

فتجري الأنهار تحت حدائق العسكر والبوليس...» (يحيايوي، 2008، قمر الشاي، ص 49).

في هذا المقطع يتضح متخيل الشاعر في تماهيه مع عود الثقب المحترق، وكأنه يستحضر استغلال وانتهازية بني البشر الذين يتراحمون ويتدافعون أمام فتيل غير منتهي الصلاحية عساه يضيء عتمة حياتهم، لكن ما إن تتم الاستفادة منه يرمى مظلوما مكلوما لا اعتبار له، ولا مجاملات.

يتحد كذلك الشاعر مع متخيل آخر ووجع آخر، متخيل متشيء، حالة وصدمة، صدمة موته وعجزه يقول:

« إذا سدت بروج الروح

أخشى ما وراء الباب

أخشى الباب والأصحاب

أخشى من دمائي قد تراودني على دمها

وأخشى دمكم في الليل يورق بالوصايا..

لا تلوموا

تحت أقدام عوت ربح سموم

وضج في سهوي بهاء كنت أكنزه

ومال اليوم هودجي القديم...» (يحيايوي، 2008، ما يراه القلب الحافي في زمن الأحذية، ص 79، 80).

يتدرج الشاعر في متخيله في هذا المقطع فيصل بادئ الأمر موته، وما قد يخلفه من حزن يهيمن على أصحابه، خلانه وأحبائه، حزن يغشاه بالخشية والحيرة والتذلل للمحبوب، وجع يغدقه فيما قد يكون، ليفيق من غشاوته على متخيل آخر، ليس الموت المادي هو، إنما الموت المعنوي والمكانة التي فقدتها بسبب عجزه وميلان هودجه، الذي أفقده حتى القدرة على المشي، يقول:

« في آخر الليل والكأس

بدا لي أن أمشي

ولو كان لي قدما لمشييت

لاحظت أن الميم ملمومة

والشين بخاخة ترش الشاعر فجرا

والياء محطة عبور السكارى

وتاء المتكلم ترتعش من بوليس الليل» (يحياوي، 2008، قمر الشاي ص 29)

لا يقصد الشاعر في هذا المقطع المشي الحركي إنما يريد البوح عبر متخيل آخر لرجل فاقد القدمين بسكونه وارتبائه في الحياة.

تتعانق النصوص السابقة وتلاحم في بناء كون شعري يقول عجز الإنسان، لاعجزه الذاتي، إنما تعجزه من المجتمع المهمش له بعد انتهاء صلاحيته-حسبهم- تماما كقتيل عود الثقاب المشتعل، الأمر الذي يرسخ عادة الحزن لديه فلا يرى في الكون إلا مواجهه، يقول:

« لا قمر في السماء سوى وجه قلبي

ولا قطط في الشوارع غير همومي

يرجرجها البرد..

والتائهون السكارى فناديل يابسة الضوء

لا طرق في المدينة غير متاهات المجاعات

لا سمر غير قهقهة الصمت

تسبح في سدم الروح» (يحياوي، 2008، قمر الشاي، ص 69).

رغم اكتئابه الواضح في هذه القصيدة، يحمل الشاعر فتىلا وخيطا رفيعا من أمل يجعله يرى ورغم همومه المبعثرة الملقاة في الشوارع كقطط شاردة وجه قلبه في القمر، وجهها منيرا يضيء الحياة رغم عتمتها، وعممة كل الحيارى السكارى اليابسة الضوء، فبالرغم من الوجع اللصيق بسدم الروح لا يزال القلب يحمل خيرا وبشرا، ينفلت منه بعض الأحايين فيقول؛ أريد أزهارا، أريد قلبا، أريد حبا ... (يحياوي، 2008، ما يراه القلب الحافي في زمن الأهدية).

يبوح تكرار الأداء القولي للضرورة "أريد" في القصيدة كتكريب دلالي لقاموس الرغبة بمحاولة الشاعر الانفلات من أزمته النفسانية التي لبس فيها متخيل وحالة نكران الأصدقاء والأحباب والزوج يقول:

«الصباح الباكر القهوة في فنجانها

الأطفال في النوم

وعين الزوج في القفة

في الجيب دنانير فقيرات

وفي القلب دخان التبغ

دقت ساعة الحائط

دقت ساعة الغيب.» (يحياوي، 2008، قمر الشاي، ص 95).

في هذه الأسطر يوضح الشاعر حالة وجع أخرى تتمثل في فقر الحال وضيقه وتوهان الفقير وتخبطه في انتظار بركات الوقت وغيبية الأقدار.

حزين هو الشاعر إذن ، مكلوم ، يعبر عما يخالجه من وجع عن طريق الكتابة ، يرتحل إليها سويغات العجز يقول:

« أرسم الكلمات طيوراً على الأسطر المستقيمة

أرسم ليلاً دجياً على سأم الورق الأبيض

أرسم خائنته خائنتها بالمداد الوفي

أرفع فستانها راية للإشارات

أرسم أحرفها حفراً وانحرافاً لخيل المذات

أرسم بالسيف جرحاً على رعشات البياض البليدة

أرسم من ثقتي على أصابعها أنني سيء العمر..» (يحيايوي، 2008، قمر الشاي، ص 115).

هكذا إذن يرسم الشاعر عمره ولحظات انكساره بالقلم وبالخبر الوفي لكل أزماته، فبالكلمة يعبر عن أحزانه ويعبر منها إلى

سبيل السعادة حيث الراحة النفسية والسرور والبهجة، وبالكلمة المستتلة من عمق الروح

« أكتب بلحمك، على الأرض تنشق على

قطعان خيول تخض أرض المعنى

قطعان كلمات تنقلب على القاموس..» (يحيايوي، 2008، قمر الشاي، ص 48).

يتضح للقارئ إذن حزن الشاعر وعمقه، وليست كتاباته المتألّمة سوى مرآة لما يحتويه صدره « أرسم ما في السطور يخون

الذي في الصدور.. وينساه..» (يحيايوي، 2008، قمر الشاي، ص 115، 116) سوى دليلاً على رغبته في التخلص من هذا

الوضع فليس ألمه أو بالأحرى الكتابة عن ألمه سوى تنفيساً وتصعيداً وتسامياً لما يخالجه ورغبة في بوح ومشاركة تجعله ينعم

بالسعادة والراحة النفسية ويتحرر من ذاته المفجوعة.

2.2 الشكل المفارق في الخطاب العاطفي.

يتضح شكل المفارقة في شعر عياش يحيايوي في قصيدة "ما يراه القلب الحافي في زمن الأحذية" فبالرغم من اللازمة اللغوية

المتكررة لفعل الإرادة والمربط بألفاظ الحب والحياة والرغبة في العاطفة الجياشة، إلا أن الشاعر لا يستطيع إخفاء قواميس

الحزن والانكسار، ليس حزناً ورغبة في التحرر هذه المرة، إنما ترسيخاً للمواقع برغبة نفسية مطمورة في لاوعية، تنحوبه

صوب ذبح الأزهار، وصوب حب فتاك يقسمه نصفين كحبة تفاح، واقتلاع عيون البشر وإحراق الورق يقول:

« أريد أزهاراً، أذبحها فتملاً بيّتي بالعطر وتذبل وهي تودعني

أريد حباً، يبدأ بالأعوجاج والصمت ويقسمني نصفين كما حبة التفاح

أريد وطناً، انقرض فيه الشيوخ وجذور البلوط لأمشي عارياً كالهواء

أريد بشراً، أقتلع عيونهم لأمارس مع طفلة الجيران لعبة الكويرات

أريد ورقة، لأحرقها وأكتب بالنمل حروف كلماتي...» (يحيايوي، 2008، ما يراه القلب الحافي في زمن الأحذية، ص 84).

يسوق لنا هذا المقطع الشعري الجانب المفارق في الخطاب حيث تتصارع الرغبة في الحياة والتخلص من الألم المختزلة في

فعل الإرادة مع عاطفة الألم التي يريد تجربتها في فعلي الذبح والانكسار.

يلاحظ المتأمل في المقطع أعلاه، تضارب نمطين من الغرائز، الغريزة الإيروسية (غريزة الحياة) متمثلة في فعل الإرادة ورغبة الحب والغريزة الثاناتوسية (غريزة الموت) متمثلة في غلبة المستعار المشربّب بحسب الجريمة والموت، ثم إنّ مفاعيل الخيال في تطويق الإيروسية بالثاناتوسية تبدو لنا عجيبة عصيبة على الفهم، ففي الوقت الذي يُلبس فيه الشاعر كلّ جميل ثوبا قبيحا من مثل: "أريد أزهارا، أذبحها" يقيم لكلّ قبيح ثوبا تطهيريا مثل: "أريد بشرا، أقتلع عيونهم لأمارس مع طفلة الجيران لعبة الكويرات" وكأنّه يستجلب القبيح الثاناتوسي إلى كلّ جميل إيروسية، ثمّ يريد التّخلص منه إذا ما كان في موضوعة ثاناتوسية. يعتبر المنظور الفرويديّ هذا التّضارب الغريزيّ طبيعياً فكما تنفصل غريزتا الإيروس والثاناتوس، مشكّلتين العصاب، تتحدان في خدمة الحالة السّوية للفرد إذ يعتبر حسب "فرويد": «العنصر السّاديّ من الغريزة الجنسيّة مثالا نموذجياً للاتّحاد الغريزيّ الذي يؤدي خدمة مفيدة، كما يعتبر الانحراف الذي تصبح فيه السّادية مستقلة بنفسها مثالا نموذجياً للانفصال» (فرويد، 1982، ص 68). فخطاب القسوة المتواشج مع خطاب الرغبة في الحب أمر طبيعي يغلف به الشاعر مشاعره المرهفة المنكسرة يقول "فرويد": «القسوة رمز للعطف حتّى يخفي الإنسان ما يخالجه من شعور، فلا يفضح نفسه.» (فرويد وشتيكل، د ت، 73) وعلى هذا فإنّ الرغبة السّادية الظاهرة الدّيح ما هي إلّا حاجة ذكوريّة لعدم الرّضوخ للحبّ (الأنثى) والمشاعر المرهفة.

ثم إن فعل إخفاء المشاعر في شعر "عياش يحيايوي" تجربة مفارقة مفعمة بالأنساق المطمورة، خاصة وهو الشاعر الفذ الذي أنجز العديد من الدواوين التي نال بها عددا من الجوائز الشعرية والألقاب، فكل قصيدة سنبله من سنابل البوح للمخبوء العاطفي، فكيف لشاعر يحمل همّ كتاباته وهمّ مجتمعه-كما يظهر في أعماله الخيرية- أن يكون قاسي القلب؟

3. التمثيلات النفسانية للأنساق العاطفية في شعر "عياش يحيايوي":

ارتبط إذن المعجم العاطفي في شعر "عياش يحيايوي" باستعارة حقل الموت والحياة، على اعتبارهما أصل الكون وجوهره، ف«موت الكائن وحياته جزء من جدلية الكون كله، ومن المتعذر فصل الحياة عن الموت من مختلف الجوانب.» (العودات، 1982، ص 14)، فيتوقف أمام حالتها غيايا وحضورا، نقصانا وزيادة، ما يدمج الخطاب مباشرة في التجربة النفسانية للذات.

لقد جاء الأداء اللغوي في القصائد على مستوى التجربة الشعرية، بمستويها الواعي واللاوعي، فاستدعى في المستوى الأول ذات الخطاب المتصارعة بين الخير والشر، والموت والحياة، واستحضر في المستوى الثاني نسق الهبوط والصعود ورموز الحميمة.

يغلف نسق "الهبوط" في شعر "عياش يحيايوي" الرغبة اللبيدية (الحياة والجنس)، «فإذا كان الصعود دعوة إلى الخارج، إلى ما وراء الجسد، فإن محور الهبوط هو محور حميمي هشّ وطري، والعودة الخيالية هي دائما "إدخال" حسّي-عضوي وباطني.» (دوران، 1991، ص 179) كما تستحضر تجربة الموت في الخطاب الشعري عقدة العودة إلى الأم، من خلال ارتباطها بالقبر أحد رموز الحميمة (دوران، 1991)، ف «المدفن وبطن الأم، هذان القطبان النّفسيان، هذان الحدّان الحتميان للتصور.» (دوران، 1991، ص 219) يدعواننا إلى فهم مغاير للموت، فبدلاً من أن يكون الموت هو الفناء يحدث بفعل الدفن قلب تلطيفي لمعناه «يوصل للتماثل بين المهد واللحد.» (دوران، 1991، ص 215)، فتصبح الحياة مجرد «انسلاخ عن أحشاء الأرض، بينما يمثل الموت عودة إلى المنزل (...). والرغبة الشائعة في أن يدفن الإنسان في أرض وطنه ليست سوى

المظهر الدنيوي للعودة الصّوفية إلى الجذور، إلى الجوهر، سوى رغبة في العودة إلى المنزل الأول.» (دوران، 1919، ص 214).

يظهر هذا التعلق الحميمي بالموت باعتباره نسقا مغلفا لرغبة العودة إلى الأم، ذلك الحماس الكبير للموت في الخطاب الشعري يقول: وجه الميت قطن أبيض جدا"، (يحيايوي، 2008، قمر الشاي، ص 36) يظهر هذا المقول انهار الشاعر بالموت والموتى فيشبهه وجه الميت بالقطن الناصع البياض في روعته مؤمنا بحتمية الموت: « تموت الديار ويبقى ظللها أموت أنا..

ويبقى في البرية الله.» (يحيايوي، 2008، قمر الشاي، ص 9) فيتخذ الشاعر من حزنه ذريع للرغبة في الموت وبالتالي ذريعة للعودة واللجوء إلى بطن الأم/ القبر.

4- الوظائف العقلية للهوى في شعر "عياش يحيايوي".

يلخص "جيروم أنطوان روني" (1987) الوظائف العقلية للهوى في ثلاثة أنماط ذهنية، يتعلق الأمر بفعل « التخيل والهوى». (جيروم، 1987، ص30)، « الانفعال والهوى». (جيروم، 1987، ص36)، « الهوى والعقل». (جيروم، 1987، ص 38)، فالتخيل حسب: « هو كل شيء أو لاشيء تقريبا في الهوى. إذا رأينا فيه القدرة على بناء عالم غير واقعي بواسطة صور شعورية، يمكن للتخيل أن يعبر بوضوح عن الهوى.» (جيروم، 1987، ص30) وهكذا نالت صورة عود الكبريت، والموت وراثا الذات، وصورة العجز عن المشي وامتخيل الفقر والدنانير القليلة استعطاف القراء بوصفها فعلا تعبيريا وتأثيرا في الوقت ذاته، ففي الوقت الذي صنع فيه الشاعر خيالاته بفعل انفعال الحزن، رسخت التحولات التخيلية ذلك الهوى، وتحديدًا عند اصطلاح الانفعال يجب التوقف، ف « الانفعالية الشعورية التي تغذي الخيال.» (جيروم، 1987، ص 35) ترسخ الهوى، الأمر الذي يستدعي تدخل العقل لتبرير الهوى، يقول جيروم أنطوان روني: « في التفكير الانفعالي (...) باتجاه معاكس للمنطق العقلاني، تعطى النتيجة مسبقا، فهي تحدد قيمة المقدمات المنطقية بدل أن تحدد المقدمات، لا تتدخل الحجج إلا لتبريرها، يكون التفكير غائيا.» (جيروم، 1987، ص 38) من هنا يمكن القول بأن تجربة الأهواء في شعر "عياش يحيايوي" أو بالأحرى تجربة الحزن في شعره بدأت بانفعال طفيف أسهمت متخيلاته في ترسيخه وتأزمه، ليحاول العقل تصليح الوضع برغبة سادية مغلفة لفعل الإرادة الحقيقي لديه والمتمثل في الرغبة في الحب والفرح تبريرا لهواه الانفعالي الموطد بالتخييل.

5. خاتمة:

و في الأخير يمكن القول بأنّ الشاعر الجزائري "عياش يحيايوي" استطاع بدربته ودرايته الفنية والنقدية على حد سواء الانفتاح معرفيا على نسق شعري عاطفي يقول فيه الذات الإنسانية وما يخالجهما من أوجاع ونسق نفساني يُلج عمق المخبوء اللاواعي عبر منجز تخيل كشف من خلاله عن صورته الاستهامية للأهواء، فتجربة الحزن والألم في شعره، التي حاول البحث مقاربتها انطلاقا من الجمع بين سيمياء الأهواء والسيمانيات العرفنية ، أسفرت عن وجود خيط انفعالي بسيط سرعان ما تحول إلى نسق عاطفي راسخ له ما يبرره ذهنيا وسيكولوجيا.

6. قائمة المراجع:

- يحياوي، عياش، 2008، قمر الشاي، أبو ظبي، مطبعة دار الفجر.
- يحياوي، عياش، 2008، ما يراه القلب الحافي في زمن الأحذية، أبو ظبي، مطبعة دار الفجر.
- غريماس، ألجيرداس جوليان، فونتاني جاك، 2010، سيميائيات الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس، تر: سعيد بنكراد، لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة.
- فرويد، سيجموند، 1982، الأنا والهو، تر: محمد عثمان نجاتي، مصر، دار الشروق.
- فرويد، سيجموند، وليم، شتيكل، د ط، الكبت، تر: علي السيد حضارة، مصر، المكتبة الشعبية.
- حسين العودات، 1986، الموت في الديانات الشرقية، سوريا، المطبعة العلمية بدمشق.
- دوران، جيلبير، 1991، الأنثروبولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها، تر: مصباح الصمد، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.